تمثلات الهوية في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح

Representation of Identity in El-Habib El-Saih's Me and Haim

ط د/حسني فتيحة[1,*]، أ د/طويل سعاد[2]

[1] جامعة -بسكرة-، (الجزائر)، fatiha.hasni@univ-biskra.dz

[2] جامعة بسكرة-،(الجزائر)، souad.touil@univ-biskra.dz

مخبر أبحاث اللغة والأدب الجزائري.

تاريخ الإيداع: 2022/09/01 **تاريخ المراجعة:** 2023/03/01 **تاريخ النشر:** 2023/03/31

ملخص:

تتأسّس هذه الدراسة على مقاربة مفهوم الهويّة الثقافيّة وانعكاساتها على الأنا والآخر في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح، ومحاولة الوقوف على الخصوصيّة الثقافيّة التي ميّزت المجتمع الجزائري المتعدّد المشارب الذي عرف حضورا مكثّفا للآخر أثناء الاستعمار،والذي تعدّدت أوجهه بتعدّد أيديولوجياته ومرجعياته الثقافيّة والحضاريّة، وكان لذلك عميق الأثر على الأنا الساعية للدفاع عن هويّتها وأرضها في زحمة الهويات الأخرى التي ارتبطت بشكل أو بآخر بقضايا مسّت الوطن العربي قاطبة،خاصّة ما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة وموضوع الهجرة وأهل الذمّة ،وقد تجلّى ذلك بأساليب متعدّدة كان الدين والتراث فيها الحاضر بقوة.

الكلمات المفتاحية:الهويّة، الأنا، الآخر ،،التراث،الدين،الوطن.

Abstract:

This study is based on approaching the concept of cultural identity and its reflections on the "Ego" and the "Other" in El-Habib El-Saih's Me and Haim. It, further, attempts to identify the cultural peculiarity that distinguishes the multi-cultural Algerian society. That, this latter witnessed an intensive presence of the Other from diversified ideologies, as well as cultural and civilisational backgrounds during the colonial period. So, this profoundly influenced the Ego which tended to defend its identity and land among the other crowding identities. Accordingly, these were associated, in a way or another, with the Arab Nation' issues, especially, those pertained to the Palestinian Cause, Immigration and Dhimmis. This was revealed in various ways, in which, religion and heritage were strongly present.

Key Words:*Identity, Ego, Other , Heritage, Religion, Homeland*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

أضحى موضوع الهويّة أو ما يعرف بالخصوصيّة الثقافيّة من أكثر المواضيع تداولا في الساحة الثقافيّة العربيّة والغربيّة نظرا لما يحمله من تشابك في مقاربته المنهجيّة وتعقّد إشكالاته لارتباطه بعديد الحقول المعرفيّة وتداخله مع عدّة مفاهيم أبرزها (الأنا)،إذ تعد من أهم المرتكزات التي تنبني عليها الأنا إن لم تكن الأساس في تميّز أنا عن أخرى،لما تحمله من أبعاد حضاريّة أيديولوجيّة،اجتماعيّة ثقافيّة، ارتبطت بالإنسان منذ بداية التاريخ،و الأنا والآخر من المفاهيم الغربيّة التي فرضت وجودها على الساحة الأدبيّة العربيّة ،فقد كانت هذه الثنائيّة حاضرة بقوّة في عديد الأعمال الروائيّة، ولعلّ ذلك يُعزى إلى طبيعة علاقة المجتمعات العربيّة بالآخر الذي ألقى بظلاله على الكتابة الإبداعيّة؛ إذ لا يكاد يخلو وجود الروايات العربيّة من حضور الآخر الغربي خاصّة، الذي على تعدّده هوياته سجّل حضوره بقوّة في ميدان الأنا الشرقيّة.

وكان للصِّدام الحضاري أثره البالغ في حضور هذه الثنائيّة في المتن الروائي العربي عامّة والجزائري خاصّة لاسيما بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وما تركه من ترسّبات في الذاكرة الجمعيّة، فراح الروائيون يرسمون صورا متعدّدة للآخر، منها صور مشوّهة تفضح الآخر الغربي بوصفه المحتل والمتوحّش الذي يسعى لفرض هويّته بالقوة، وأخرى سعت إلى تزيين صورة الآخر بإعطائه طابعا إنسانيّا متحضِّرا؛ وذلك بالتّركيز على العلاقات الإنسانيّة والتّعايش السّلمي التي ينسجها الأنا مع الآخر على تعدّد مشاربه وهوياته.

انطلاقا من هذا،يحاول هذا البحث تسليط الضوء على هذه الثنائيّة وما يتمخّض عنها من إشكالات ومفاهيم وعلاقات متشابكة من خلال مقاربة رواية أنا وحاييم لحبيب السايح،بغية الوقوف على تمثّلات الهويّة وتجلّياتها في المحكي الروائي .

تعدّ رواية أنا وحاييم من أبرز روايات الكاتب الحبيب السائح، صاحب التّجربة الرّوائية الغنيّة بتنوّعها الحكائي ومستوياتها السرديّة وكذا اللّغويّة، تحيل من حيث بنيتها النّصيّة إلى فترة مهمّة من حياة الجزائر التّاريخية والسّياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة إبان الاحتلال الفرنسي،يجسّد أحداثها رحلة البطلين أرسلان حنيفي وحاييم بن ميمون الذين تعرّفنا من خلالهما على عدّة شخصيات من المجتمع الجزائري المتعدّد المشارب والحامل لمخزون ثقافي لا ينضب من التراث الحضاري،مكّنه ذلك من الذود عن أصالته وهو ما شكّل صمّام أمان أسهم في الحفاظ على الهويّة الجزائريّة التي أبت أن تنحل في هويّة أخرى معادية للدين والوطن،دون أن نغفل أن الرواية عرضت لعدة قضايا وطنية وقومية أسهمت في تشكيل الوعي الوطني وتفاعله مع قضاياه وقضايا غيره.

أولا:مفاهيم تأسيسية:

1-مفهوم الهوية:

1-1--لغة:

تعدّ الهويّة**Identity** مكوّنا أصيلا من مكوّنات الذّات والوقوف على تحديدها اللغوي في معاجم اللغة القديمة يعدّ من الصعوبة بمكان إذ لا يوجد تصوّر مفاهيمي دقيق حول هذا المصطلح.

فابن منظور يحصرها في الحيّز الجامع والمكان الذي تجتمع فيه الأشياء كالحفرة والبئر...وغيرها مما انهبط من الأرض،يقول ابن سيدة:«الهوّة ما انهبط من الأرض(...)هُوَيّة جمع هُوَّة،وقيل:الهويّة بئر،بعيدة المَهواة(...)ابن شميل:الهُوّة ذاهبة في الأرض بعيدة القعر مثل الدحل غير أن له ألجافا،والجماعة الهُوّ(...)عند الأصمعي:هُوَّةٌ وهُوًى والهوّة:البئر،قال أبو عَمرو،وقيل:الهوة الحفرة البعيدة القعر وهي المهواة(...)وهي جمع هُوّة،وهي الحفرة والمطمئن من الأرض»[1] ومعنى المطمئن من الأرض المكان المنخفظ الذي لا خوف فيه.

وممّا أورده المعجم الفلسفي لمراد وهبة أنّ الهويّة هي:«الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الأغيار"[2]،والهوية مصدر صناعي مشتقة من :"الهو كما تشتق الإنسانية من الإنسان، والرجولية من الرجل، وإنما فعل ذلك بعض المترجمين لأنهم رأوا أنها أقل تغليظا من اسم الوجود»[3]

وترد الهويّة بعدّة معان في اللّغات المختلفة:

الفرنسية	الانجليزية	اللاتينية
Identité	Identity	Identitas

ولفظ الهويّة ليس عربيا في أصله وإنّما اضطر إليه المترجمون ولها عدّة مرادفات،قال الفارابي:«هوية الشيء،وعينيّته،وتشخيصه،وخصوصيته،ووجوده المنفرد له،كل واحد،وخصوصيته،ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك»[4].

لم تقف معاجم اللغة العربية كما أوضحنا على تصوّر دقيق لهذا المصطلح بخلاف معاجم الفلسفة التي انبثق منها المصطلح،لذلك فالبحث في موضوع الهويّة يستدعي قطعا التبحّر في الدراسات الفلسفيّة قديمها وحديثها إضافة إلى حقول معرفيّة أخرى سنأتي على ذكرها لاحقا.

1-2--اصطلاحا:

حظي مفهوم الهويّة باهتمام واسع لدى الدارسين في مختلف حقول المعرفة في محاولة ضبطه في مفهوم محدّد.

والهويّة عند علماء النّفس هي:«اسم الكيان أو الوجود على حاله أي وجود الشخص أو الشعب أو الأمة كما هي بناء على أساس مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من إدراك صاحب الهوية بعينه»[5]

وهي:«الشعور الواعي لامتلاك هوية شخصية(...)أنها مجموعة المميزات الجسمية والنفسية والمعنوية والقضائية والاجتماعية والثقافية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه وأن يتعرّف الناس عليه، أو التي من خلالها يشعر الفرد بأنه موجود كإنسان له جملة من الأدوار والوظائف والتي من خلالها يشعر بأنه مقبول ومعترف به»[6]؛ إنّ الهويّة مرتبطة بإدراك الإنسان لذاته وشخصيّته المتفرّدة عن الآخرين،الذين يشكلون حتميّة وجوديّة لإدراك الذّات لذاتها وهويّتها ووجودها ما يشعرها بالوحدة والأمان والتّماسك.

والهويّة من منظور سوسيولوجي تبدأ بالانتقال من مفهوم الفرديّة إلى الاجتماعية«حيث تتعلّق الهويّة بشكل عام،بفهم النّاس وتصوّرهم لأنفسهم لما يعتقدون أنه مهم في حياتهم»[7]

وتعرّف أيضا على أنها:«الرابطة القيمية والمسلكية بين أفراد المجتمع ككل أوشريحة اجتماعية معينة؛بحيث يرى الفرد نفسه من خلال المجتمع الذي يشاركه نفس القيم والاعتقادات والسلوك»[8]

إن النظرة الاجتماعيّة لمفهوم الهويّة ترى في البيئة العنصر الأساس في تنمية قدرات الفرد وتطوير مكتسباته التي لا يتحصّل عليها إلا من خلال الوسط الذي ولد فيه وبذلك يتشارك مع مجتمعه عدة صفات يحدّدها كل مجتمع وفقا لمعتقداته والقيم التي تبنّاها عبر الزمن.

ثانيا-الهويّة الدينيّة في الرواية:

تشكّل الهويّة الدينيّة مقوّما أصيلا من مقوّمات الذّات والمجتمع؛ حيث تحافظ على استقراره الروحي والعقائدي باعتبارها مصدرا للمبادئ والأخلاق والقيم، ما يخلق جانبا من التّوازن الداخلي والشّعور بالانتماء والتفرّد، الذي ينعكس على الشّعور الجمعي لدى أفراد المجتمع الواحد،وتحتدم الرغبة في حفظها والدفاع عنها في حال الإحساس بوجود تهديد خارجي لهذه المرتكزات والقيم، وهو ما سنقف عنده عند تبحّرنا في رواية أنا وحاييم للحبيب السائح وما لها من بعد ديني.

تعدّ الهويّة الإسلاميّة العامل الأساس في انبناء الحضارة العربيّة الإسلاميّة على أسس ركيزة قائمة على النظام العلائقي الوثيق بين الذّات والخالق الواحد، وإذا أردنا الوقوف على تحديد دقيق لها فيمكن القول إنها:«الإيمان بعقيدة هذه الأمة،والاعتزاز بالانتماء إليها،واحترام قيمها الحضارية والثقافية،وإبراز الشعائر الإسلامية والاعتزاز والتمسّك بها،والشعور بالتميّز والاستقلالية الفردية والجماعية،والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ والشهادة على الناس»[9].

والدّين من أهم القضايا التي تطرحها الرواية خاصّة إذا تعلّق الأمر بطبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، وما يشكّله الدّين حينها من حساسيّة عقائديّة لارتباطه بالجانب الروحي الذي ترتكز عليه كل الأمم، هذه التيمة التي نجدها في الرواية متمثّلة في العلاقة بين الآخر اليهودي والأنا المسلمة من جهة وبين هاته الأخيرة والآخر النّصراني من جهة أخرى، وإن كان الروائي يميل لتصوير علاقة المسلم باليهودي وهو ما يتجلّى في عنوان الرواية،أما الآخر النّصراني المتمثّل في الاستعمار الفرنسي فكان التركيز عليه في بعده الحضاري و الأخلاقي بعيدا عن الدّين.

بيّنت الرواية أنّ العلاقة بين المسلم واليهودي المتجسّدة في علاقة أرسلان وحاييم قائمة على أساس إنساني مبني على التّفاهم و الوعي والتّسامح الديني، فكان كل منهما يمارس عقائده الدينيّة بكل حريّة دون أن يؤثّر ذلك على علاقتهما التي تميّزت بالاحترام المتبادل وهو ما يبيّنه الملفوظ الروائي الآتي:«حتى إذا عدت إلى غرفة النوم وجدت حاييم دخل سريره وبين يديه كتاب التوراة الذي غالبا ما يقرأ منه حين يكون في حالات من الحزن أو التوتر ابتسمت، قلت في داخلي إنها ليلة مقدّسة كنت أعرف أن حاييم غسل يديه ووجهه قبل أخذ كتابه(...) فلتطب روحانا المعنيتان بما قرأناه !.تخيلته ناسكا يأتي صوته من كهف."ولينعم به جسدانا المتعبان"قلت وتمنيت له ليلة طيبة ثم أطفأت النور»[10]؛فهذه الصّورة السرديّة التي تجمع بين ديانتين سماويّتين تحت سقف واحد في جو يسوده الاحترام تبعث شعورا بالتّفاهم والإنسانيّة التي ركّز الروائي على إبرازها في كل ثنايا روايته، زد على ذلك ما يظهر من مشترك بينهما كوضوء أرسلان قبل قراءة القرآن ،وغسل حاييم ليديه ووجهه قبل قراءة التّوراة حتى إذا ما انتهيا من قراءتهما دعا كل منهما للآخر وتمنّيا لبعضهما ليلة طيّبة.

كما صوّرت الرواية أجواء البهجة والتّراحم خلال المولد النّبوي وعاشوراء،وما يتبعها ذلك من طقوس دينيّة وعادات ونفحات روحانيّة تجمع عائلتيهما ومن ذلك قول (أرسلان):«إنّي لا أنسى أيضا مناسبة المولد النّبوي،والديك المعروف بريش نوار الفول الذي ذبحه لنا موشي والد حاييم،ونصف الديك نفسه بمرقه مع الرقاق الذي أوصلته في صحن الفخار لخالتي زَهيرة»[11] كل هذا يؤكّد علاقات الألفة وحسن الجوار التي جمعت العائلتين حيث يذبح اليهودي للمسلم في هذه المناسبة من جهة ،ويتقاسم المسلم طعامه مع اليهودي من جهة أخرى ،وهو ما كان حاضرا أيضا في الأعياد الدينيّة كعيد الفطر يقول أرسلان:«أمس فقط كنا ندخل داري عائلتينا العامرتين،جدتك وأمي تتزاوران وتتبادلان أطباق الأكل والتحيات والتهاني في عيد الفطر كما في يوم كيبور نأكل الطعام التقليدي نفسه ونلعب ونمرح»[12]،إضافة لأعياد اليهود كعيد الأموات الذي تميز بطقوس خاصة بهم.

إضافة إلى الأمور المشتركة بين العقيدتين كاحترام حرمة الميت بتغسيله وتكفينه والمشي في جنازته ودفنه والإيمان بالحياة بعد الموت ،وهو ما يبيّنه المقطع السردي الذي يصوّر طقوس اليهود في التّعامل مع الميّت والتي لا تختلف إلى حد كبير مع طقوس المسلمين ،يقول أرسلان في رثائه لحاييم:«أتصوّرك حين طهّرتك مغسّلتك ولفّتك في كفنك سبع طبقات(...)عبرت من ظهر الرحم إلى ظهر القبر أعرف الآن من التراب جئت وإلى التراب عدت(...)فوحدي غادرت المقبرة ووحدي مشيت في طريق غير تلك مشيت فيها أجمل مع الحاملين نعشك على الأكتاف من دار دنيانا هذه إلى الدار الأزلية هناك»[13]،وغيرها من المشتركات كتحريم الزنا ولحم الخنزير.

الرواية بذلك لم تلغ الجانب الديني للآخر اليهودي، بل سعت لإبراز مميّزاته من خلال شخصيّة حاييم وما تتميّز به من صفات نبيلة.

ثالثا:الهويّة الوطنيّة:

تعرّف الهويّة الوطنيّة National Identity على أنّها:«مجموعة من السمات والخصائص والصفات الوطنية المشتركة التي يمكن تنميتها ...حول حب الوطن والانتماء إليه والحفاظ على اللغة العربية واحترام الرموز الوطنية والتي يعتز بها مشكلة جوهر وجودهم وشخصيتهم الوطنية المميزة»[14].

وهي وفقا لذلك تشكل:«الإطار الذي ينتظم بداخله أعضاء المجتمع تربطهم مجموعة من القيم والمفاهيم المشتركة»[15]؛إذن ووفقا لما تقدّم ذكره من تحديدات يمكن القول بأنّ الهويّة الوطنيّة تقوم في مجملها على التّرابط والتّوافق والمشاركة بين أفراد المجتمع الواحد حيث تشكّل جوهره وسماته المميّزة التي تميّز هويّة عن أخرى.

وقد برزت في الرواية عديد الشّخصيات الوطنيّة التي حملت على عاتقها ثقل المسؤوليّة المتمثّل في الدّفاع عن الوطن بكافّة أشكال الكفاح المتاحة وقد اتسمت علاقتها بالاستعمار بالتّصادم والمواجهة ،لعلّ أبرز هذه الشّخصيات شخصيّة (أرسلان حنيفي) وما لها من بعد وطني ثوري،هذا الشّاب الجزائري الذي ترعرع في عائلة ميسورة الحال وأكمل تعليمه في مدارس الاستعمار في جو طافح بالتحدّي والعنصريّة التي يسلّطها عليه التلاميذ والحرّاس ،في ظل وعيه بأوضاع الأهالي وظروفهم المزرية الذين لم يكونوا على قدر حظه لمزاولة التّعليم أو حتى إيجاد ما يأكلون ويلبسون بسبب السياسات الاستعماريّة الغاشمة وما يطالهم من الأقدام السوداء، الأمر الذي كان يسبّب له الحزن يقول: « ظلّت تحزنني صور الفقر والحرمان والتشرّد التي عليها الأهالي المسلمين بالقدر

الذي أغاضتني العنصرية التي كانت غالبية الأقدام السوداء والأوروبيين تظهرها اتجاه الأهالي المسلمين، وكان الغلاة منهم لا يزالون لا يخفون ذالك تجاه اليهود المتقيدين بألبسة الأهالي من المسلمين »[16]، وأمام هذا الوعي بعمق المأساة والظلم الذي يتخبّط فيه المجتمع، بدأت شرارة الانقلاب على الرّاهن الوحشي تتغلغل إلى نفس (أرسلان) وهو ما ترجمه لا شعوريا ردّه على حاييم عندما قال له (حاييم): «كيف يقبل الضمير الإنساني بأن يستمرّ هذا»، ليكون رد (أرسلان): «لابد من صعقة عظيمة توقظه، قلت لا أتصور كيف»[17]،يلتقي بعدها بمجموعة من الطلبة المقاومين ليلتحق بالكفاح المسلّح ويقودنا في تلك الرحلة الوعرة التي صوّرت المجاهد الجزائري وما يتحلّى به من حنكة وصبر وجلد وما يعانيه من تحدّيات أمام الأمراض والأوجاع التي يتجرّعها خدمة لمسعى التحرّر والانعتاق.

ولم تكن المرأة بمنأى عن كل هذا، فإلى جانب الرجل سجّلت المرأة حضورها بقوة في مختلف ميادين القتال ومن أبرزهن(زليخة النضري)،فقد ظلّت (زليخة)-رمزا للمرأة وتضحياتها-كأي جندي معرّضة لأخطار الكمائن والاشتباكات المسلّحة ومثل أي جندي عانت مغص الجوع ولهيب العطش وإنهاك المرض ،وهو ما يبيّنه الملفوظ الروائي الذي فحواه:«زليخة في زي الجنديات الذي لبسته غداة التحاقها بعد تنفيذها عملية ضد المفتش آلان بورسييه(...)أبصرتها خلال تحرّكنا الدائم،في غمرة الاشتباكات أحيانا،في اجتماعات التعبئة،في التدريبات على نصب الكمائن وتكتيك الانسحاب»[18] ،ويمكن القول إن الحبيب السائح من هذا المنطلق برع في تصويره لدور المرأة الجزائرية إبّان الاحتلال وتضحياتها الجسام التي تفوق قدراتها وتحمّلها،وقد تجلّى دور المرأة في جوانب مهمّة خاصة في حفظ الهويّة الثقافية الجزائريّة وهو ما سنأتي على ذكره في العنصر اللاحق المتعلّق بالهويّة الثّقافيّة.

إنّ الهويّة كمقوّم هام من مقوّمات الدولة تبحث عن التوافق بين مكوّنات المجتمع المختلفة بما يضمن تلاحم بنياته وتماسكه في مواجهة الأخطار المحدقة التي تهدّد الأرض والوطن،من هنا انبثق مفهوم المواطنة.

وتعدّ المواطنة من أهم مصادر الهويّة الشخصيّة لأي فرد ينتمي لجماعة معيّنة، ذلك لما تمنحه من خصوصيّة تميّزه عن الجماعات الأخرى وما تكسبه من حقوق وما تفرضه من واجبات داخل الجماعة الواحدة، وهي ضوابط تختلف بين جماعة وأخرى، فأن تكون مواطنا فذلك يعني عادة: «أن تشترك اشتراكا تاما في عضوية مجموعة سياسية مدينة كانت، أو بلدا، أو أمة-دولة»[19] ،فالمواطنة تتعلّق بالانخراط في عضوية جماعة معيّنة مع الالتزام بقوانين هذه الجماعة.

من بين الشّخصيات الوطنيّة تأتي شخصيّة (حاييم بن ميمون) في هذه الرواية مخالفة تماما لما نعرفه عن الطبيعة النّمطية للشخصيّة اليهوديّة والتي تعرف بحب المال والأنانيّة والغدر والخيانة، فحاييم يرى في نفسه مواطنا جزائريا منتميا للأهالي الذين قهرهم الاستعمار، يساهم من خلال نضاله الخفي عن طريق صيدليته في دعم الثّورة بكل ما وسعه ذلك من أدوية، فضلا عن إيواء المقاومين الذين هم محل بحث ومداواة جراحهم،هذا الحب والإخلاص للوطن وأبناءه تجلّى واضحا في الوصيّة التي تركها لأرسلان قبل وفاته بسرطان الدم:«صديقي العزيز الوفي أرسلان،اعذرني إن لم أخبرك قبل هذا الوقت بأني سأرحل قريبا عن هذه الدنيا وفي قلبي حب عظيم لك ولأهلنا وبلدنا»[20]،وغيرها من المواقف التي ترجمة مكانة الوطن لدى حاييم.

وتظهر الرواية العديد من الشّخصيات الأجنبيّة الدّاعمة للقضيّة الوطنيّة والتي تواجه إلى جانب المقاومين التضييق والعنف نتيجة مواقفها،من هاته الشّخصيات نذكر: (سيلين شوفالين) التي تعدّ من أشدّ المناصرين للحريّة والتي كثيرا ما تتشاطر مع أرسلان رؤيته بشأن التحرّر، إضافة لـ: (فاردنون إيقتون): وهو مناضل شيوعي أعدم بالمقصلة في11فيفري 1957م لانتمائه لخلايا ج.ت.و، ولا ننسى الطبيب (ستيفانيني) الذي قام بمعالجة (زليخة) بعد العمليّة الفدائيّة التي قامت بها..وغيرهم كثير ،وبذلك استطاع الكاتب تسليط الضوء على الآخر الوطني الذي امتلك من الإنسانيّة وحب الوطن ما يتخطّى حدود الأيديولوجيا والمعتقد الذي ينتمي إليهما.

رابعا: الهويّة الثّقافيّة

1-مفهوم الثّقافة Culture:

أ-لغة:

حملت لفظة ثقافة**Culture** عدة معاني لغويّة ارتبطت في مجملها بالزراعة،والحذق والفهم والذكاء والفطنة والعقل، وتقويم الاعوجاج.

ممّا جاء في المدلول اللّغوي للثّقافة ما أورده ابن منظور في لسان العرب

وقد جاء في المعجم الفلسفي أن:«اللفظ الإفرنجي مشتق من الفعل اللاتيني: -Colo-Golere-Coului Cultum،أي يحرث الأرض ويرعاها"[21]،أما اللفظ العربي فمأخوذ من:"تثقيف الرمح أي تسويته،يقال ثقف الرمح أي قوّمه ونفى عنه الإعوجاج وجعله أداة صالحة من أدوات الحرب»[22]

و«ثقافة الرجل ثقافة صار حاذقا،وثقفت الشيء حذقته،والرجل المثقف:الحاذق الفهم،وغلام ثقف:أي ذو فطنة وذكاء(...)والثقافة بالمعنى الخاص هي تنمية بعض الملكات العقلية أو تسوية بعض الوظائف البدنية،ومنها تثقيف العقل»[23]

وكغيره من المصطلحات يحمل عدة معاني في اللغات المختلفة:

الفرنسية	الانجليزية	اللاتينية
Culture	Culture	Cultura

ب-اصطلاحا:

إن لمصطلح **الثقافةCulture** عدة تعريفات حسب الميادين العلمية المختلفة التي عنيت بمفهوم الثقافة لدى المجتمعات المختلفة،ففي حقل السوسيولوجيا عرّفها ***غي روشي Rocher Guy*** معتبرا إياها:«كُلٌ مرتبط بطريقة تفكير وإحساس منظم مكتسب ومتقاسم من طرف عدد من الأفراد غايتها تكوين كتلة مميزة من الأفراد حيث تكتسي صبغة ذاتية وموضوعية ورمزية»[24]

و يعرّف ***تيلر*** الثقافة بأنها:«كل مركب يشمل المعرفة والإيمان والفن والقانون والأخلاق والعادات،والميول الأخرى للإنسان من حيث هو عضو في مجتمع»[25]

وفي حقل الأنثروبولوجيا يعرفها ***كلود ليفي ستراوس Levi Strauss*** بقوله:«هي مجموعة من الأنساق الرمزية تتصدّرها اللغة والقواعد التي تقوم عليها روابط القرابة والعلاقات الاقتصادية ومنتوج الفن والعلم والدين،حيث تعبر كل هذه الأنساق عن الواقع الفيزيائي الطبيعي والواقع الاجتماعي»[26]

والهوية الثقافية Identité Culturelle بذلك تجمع:«كل ما هو مشترك بين أفراد المجموعة كالقواعد والمعايير والقيم...فالانتماء لثقافة يعبر بالانتساب لقيم ومعايير هذه الثقافة(...)وشبه ***دورايس Dorais Louis-Jaques*** الهوية الثقافية بالصيرورة والتطور**Processus** ،أين تتشارك مجموعة من الأفراد طريقة معينة وموحدة لفهم الكون ويتشاركون في الأفكار وأشكال السلوك»[27]

وهي بمفهوم عام:«نظام من القيم والتصورات التي يتميز بها مجتمع ما تبعا لخصوصياته التاريخية والحضارية،وكل شعب من الشعوب البشرية ينتمي إلى ثقافة متميزة عن غيرها،وهي كيان يتطور باستمرار ويتأثر بالهويات الثقافية الأخرى»[28]

ويبين ***دنيس Denys Cuche*** أن مفهوم الهوية الثقافية يتماشى ومفهوم الثقافة لكن هذا لا يعني التداخل فيما بينهما،فالثقافة مرجعها دائما في صيرورة غير شعورية،بينما الهوية تشير إلى الانتماء الذي هو شعوري،وتذهب المفكرة الفرنسية ***فانسونG.Vinsonneau*** إلى ربط الثقافة بالهوية حيث عدّت الثقافة هي المنتج أو المورد الذي يؤدي إلى تطوير الهوية لدى المجتمع[29]

إن وجود الهوية ضمن أطر مرجعية معينة تمنح ما يشبه الإحساس بالقيمة والتميّز والشعور بالانتماء.

وقد استطاع الروائي أن ينقل إلينا حمولة ثقافية معتبرة من الموروث الثقافي الجزائري وما يحمله من عادات وتقاليد ضاربة بجذورها في أعماق المجتمع الجزائري، تشرّبها جيل بعد جيل حيث اتخذت في فترة الاستعمار أداة فعّالة للمقاومة الثقافية ضد سياسة طمس الهوية الجزائرية التي انتهجها الاستعمار.

ويشكّل التراث قيمة حضارية خالدة ارتبطت بالمجتمعات ارتباطا وثيقا،وكان له عميق الأثر في تبلور وعيها وتوجيه سلوكاتها و بما يحمله من قيم معنوية ومادية كالعادات والتقاليد التي ارتبطت بسلوك الإنسان اليومي مع نفسه وغيره، وتكون مقدّسة بالنسبة للمجتمع الذي يمارسها بتلقائية وعفوية وهي متداولة ومتوارثة

عبر الزمن، على اعتبار أن الموروث هو:«حصيلة خبرات أسلافنا الفكرية والاجتماعية والمادية، المكتوب والشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي، الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب»[30]،وقد عبّرت الرواية عن مواقف الحياة اليومية للمجتمع الجزائري وتفاعله مع الأعراق الأخرى في ظل الموروث الشعبي والعادات والتقاليد التي عرّفنا عليها بطلي الرواية أرسلان وحاييم.

عبرت عن هويته الجزائرية.

2-اللباس التقليدي:

تندرج الألبسة التقليدية ضمن التراث المادي الذي كان حاضرا بقوة بوصفه شاهدا على الموروث الجزائري الزاخر وأصالة شعبه، ونقصد به:«كل ما يصنعه الإنسان في حياته العامة وكل ما ينتجه العمل البشري من أشياء ملموسة،وكذلك كل ما يحصل عليه النّاس عن طريق استخدام فنونهم»[31] وهو ما يبيّنه الحضور المكثّف للألبسة والمأكولات التقليدية.

وقد حرصت جدّة أرسلان (الجدّة ربيعة) كغيرها من أبناء الوطن على التمسّك بالتراث ويظهر هذا الحرص من خلال ممارساتها اليومية التي تعبق بالتراث والأصالة ،يقول أرسلان في الحديث عنها:«إنها كما أسجّله في سكون هذه الليلة،لبست أجمل عباءة لها،ووضعت حليها الذهبية الخفيفة في أذنيها وجيدها ومعصميها وكحّلت عينيها،ومضغت المسواك»[32]،وهو ما تمارسه النساء من عادات تحافظ بها على هويّتها فما العباءة والكحل والحلي والمسواك إلا بضع من العادات والتقاليد الجزائرية التي ما تزال تمارسها الجدات إلى يومنا هذا، وكلها أدوات للزينة فالكحل للعين والمسواك للفم والحلي للعنق والمعصم... وهي بوصفها أدوات للزينة هي كذلك علامة من علامات الجمال عند المرأة.

ورغم التقدّم في السن ظلت (الجدّة ربيعة) ككل النساء امرأة محافظة على عفّتها واحتشامها حتى أمام أبنائها، يقول أرسلان عنها:«جدتي لا تكشف شعرها لغيري ولو كان والدي إلا والدتي فإنها هي التي غالبا ما رأيتها في بيت مزرعتنا تطليه بالحناء وبالغاسول تغسله»[33]

وإلى جانب جدّته التي تعد مخزونا تاريخيا طافحا بالتراث نجد والدته(تركية) التي حملت بلباسها التقليدي _الذي يستمد تقاسيمه من تعاليم الإسلام الداعية للستر والاحتشام_ مسؤولية الحفاظ على الهوية الثقافية المميّزة للمجتمع الجزائري من خلال ألبستها التقليدية فنجدها تارة بعباءتها الحريرية البيضاء وعصابة رأسها الذهبية:«دخلت على أمي في حجرتها فقامت لي في عباءتها الحريرية البيضاء ممسكة إلى الخلف شعرها الأسود بعصابة ذهبية»[34]،ونجدها تارة أخرى معصبة شعرها بمحرة زهرية ومرتدية عباءة بيضاء من جوخ الفينة مع أجمل الحلي النفيسة يقول أرسلان:«كانت معصّبة شعرها الأسود بمحرمة زهرية يتدلّى من أذنيها قرطاها الذهبيان الكبيران من نوع الونيسة لابسة عباءة بيضاء من جوخ الفينة مشدودة الخصر بحزم من قطع لويس الثالث عشر الذهبية وفي جيدها من المعدن النفيس ذاته سلسلة مضفورة بقطعة الخامسة»[35] وغيرها من المظاهر المتوارثة التي تتجلى من خلال الألبسة التقليدة النسائية.

إضافة إلى المرأة كان الرجل الجزائري متمسّكا بلباسه التقليدي متحديا الاستعمار في محاولة تجنيسه وإدماجه فيظهر بحذائه وعمامته وبرنوسه الذي لا يخلعه حتى في الصيف تعبيرا عن تمسّكه بأصالته رغم اشتداد النكبات وهو ما بيّنه أرسلان في وصفه للمسافرين من الأهالي ذات صيف عندما كان راكبا

الحافلة:«يلفت انتباهي إلى مسافرين من الأهالي الموسّرين قعدا في الأمام إلى شمال الصف الأول بعمامتيهما وبرنوسيهما وحذائيهما الجلديين من النوع المشترط»[36].

لقد كانت الألبسة التقليدية حاضرة في كل زمان ومكان وفي كل المناسبات التي يرتدي فيها الناس صغارا وكبارا ما يتلاءم مع المناسبة كالعرس والختان مثلا،حيث يحضر لباس الختان متمثلا في لباس أرسلان الطفل والمتكون من العباية والقشابية والبلغة... يقول:«لختاني الذي لا أذكر منه سوى العباية والشاشية والبلغة وقطعة كتان معقودة على جلدة الحشية المتيبسة،وهي محفوظة كلها في دولاب ملابسي،حتى الصغيرة منها،مطيبة بالمسك»[37]

كما رسمت الرواية صورا للتماسك الاجتماعي بين الأنا والآخر الذي عاش معنا فترة من الزمن وتبنّى عاداتنا وتقاليدنا متجاوزا الانتماءات العقائدية والأيديولوجية، كوالدة حاييم السيدة(زهيرة) التي رفضت الانصهار في ثقافة المستعمر وفضّلت التمسّك بعادات المجتمع الجزائري رغم ما كان يطالها من ألسنة المستوطنين.

لقد خاضت الجزائر حربا ثقافية ضروسا للحفاظ على هويّتها وكيانها في ظل ثقافة معادية ساعية لطمس معالم الهوية الجزائرية،وإن لم تكن حربا معلنة فقد كان لها أثر بالغ وتأثير عميق في انتصار الهوية الجزائرية عامة والثقافية خاصة وصمودها طيلة قرن وثلاثة عقود ونيّف من الزمن.

3-الأكل التقليدي:

سعت الأنا لإثبات وجودها بطرق غير مباشرة كان أبرزها اللباس التقليدي،وإلى جانب اللباس التقليدي كان الأكل التقليدي من أهم مميّزات الأنا.

ويعد الأكل التقليدي من أبرز مميزات المجتمع الجزائري المستمدّة من الموروث الشعبي المتعدد المشارب؛ إذ تبيّن لنا الرواية أن المجتمع الجزائري ظل محافظا على الأطباق والأطعمة التقليدية، ويظهر ذلك من خلال المأكولات التي تعدّها جدة أرسلان كطبق الكسكس والرايب وطاجين الرقاق والحريرة والبركوكس وغيرها من الأطباق التقليدية الجزائرية يقول أرسلان:«نتناول في بيت عائلتينا أشهى المأكولات التقليدية التي تردّ البرد،كنا نشتهي مثل قراءة الروايات في أيام الثلج،الحريرة والبركوكس بالحشايش والمطلوع بالعسل والرفيس بالشاي والرشتة بلحم الدجاج»[38]، لقد عد لنا الروائي مجموعة من المأكولات التقليدية التي تحضر في النص الروائي وتقف شاهدة على الموروث الثقافي الذي يعبر عن الهوية من خلال عرض مجموعة من الأطباق .

لقد أولى الكاتب بالغ عنايته بالعادات والتقاليد المميّزة للمجتمع الجزائري باعتبارها جزءا من التراث الذي يعد مبعث فخر واعتزاز لدى المجتمع، بما يشكله من معان عميقة تتصل بموروث الشعب وثقافته الأصيلة.

لقد كانت العودة للتراث السبيل الأنجع للدفاع عن الهوية الجزائرية من الانحلال في ثقافة الآخر وهويته التي سعى إلى فرضها بالقوة في أرض الأنا الأمر الذي يتنافى مع طبيعة التبادل الثقافي الذي يسري بصورة عفوية دون إكراه.

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة التي تطرّقت لتمثلات الهوية الجزائرية من خلال رواية (أنا وحاييم)للحبيب السائح، يمكننا الوقوف على النتائج الآتية:

- سعت الرواية لإبراز هويّة المجتمع الجزائري ومقوّمات تراثه من خلال جملة من العادات والتقاليد المتوارثة والتي تشاركها مع غيره من الأطياف التي كانت حاضرة إبان الاستعمار.
- إنّ العلاقة مع الآخر تأخذ عدة مستويات تبعا للعلاقة التي ينسجها كل منهما مع الآخر،فقد تكون علاقة صدام ومواجهة كالعلاقة التي حكمت الأنا الجزائرية مع الآخر المستعمر ،أو قد تكون علاقة إنسانية قائمة على المثاقفة والتسامح والاحترام كعلاقة حاييم وأرسلان.
- استطاع الروائي إظهار قيمة التسامح الديني والتعايش السلمي من خلال تسليط الضوء على المشتركات القائمة بين العقيدتين الإسلامية واليهودية وأنها من رب واحد،وأراد من خلال ذلك التركيز على الجانب الإيجابي للشخصية اليهودية حيث منحها رقيا روحيا وأخلاقيا.

هوامش وإحالات المقال

[1]ابن منظور لسان العرب،تح:عبد الله علي الكبير وآخرون،دار المعارف،القاهرة،مصر،ط1،مجلد:6(م-ى)،دت، ص3729.

[2] مراد وهبة،المعجم الفلسفي،دار قباء الحديثة للطباعة والنشر،القاهرة،مصر،ط5 ،2007م،ص667.

[3]جميل صليبا،المعجم الفلسفي،دار الكتاب اللبناني،بيروت لبنان،دط،1982،ج2:(ط-ي)،ص530.

[4]هنية حسني، سوسيولوجيا الهوية الوطنية في المجتمع الجزائري(إشكاليات وحقائق)،من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية،تقديم:نجاة يحياوي،دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع،تلمسان،الجزائر،دط،2020،ص33.

[5]محمد مسلم،الهوية في مواجهة الإندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا،دار قرطبة للنشر والتوزيع،المحمدية،الجزائر،ط1،2009م،ص87-88.

[6]الخنساء تومي،انعكاسات وسائل الإعلام على الهوية الوطنية(التداعيات/الحلول)،من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية ،ص105.

[7]هنية حسني، سوسيولوجيا الهوية الوطنية في المجتمع الجزائري(إشكاليات وحقائق)،من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية،ص33.

[8]مراد وهبة،المعجم الفلسفي ،ص229.

[9]خليل نوري ومسهر العاني،الهوية في زمن العولمة،مركز البحوث والدراسات الإسلامية،العراق،ط1 ،2009م،ص45.

[10]الحبيب السائح، رواية أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص123.

[11]المصدر نفسه،ص108.

[12]المصدر نفسه،ص146.

[13]المصدر نفسه،ص200.

[14]أحمد محمد إبراهيم محمد الشوربجي وآخرون،فاعلية برنامج مسرحي لتنمية بعض أبعاد الهوية لتلاميذ المرحلة الابتدائية،مجلة بحوث التربية النوعية،جامعة المنصورة،العراق، عدد63 ،2021م، ص58 .

[15]نزيهة خليل،المدرسة والهوية الوطنية في ظل التحديات الراهنة، دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية،مرجع سابق، ص122.

[16] الحبيب السائح،أنا وحاييم،مصدر سابق،ص74، 75

[17] المصدر نفسه، ص 75

[18] المصدر نفسه،ص177

[19] الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،لبنان،ط1، 1999م،ص129-130

[20] الحبيب السائح،أنا وحاييم،مصدر سابق،ص325.

[21] ا الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه،مرجع سابق،ص229.

[22] جميل صليبا،المعجم الفلسفي،مرجع سابق،ج2:(ط-ي) ،ص378.

[23] كمال بوغديري،الهوية الثقافية الجزائرية في ظل الازدواجية اللغوية مقاربة سوسيوأنثروبولوجية،من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية،مرجع سابق،ص73.

[24] مراد وهبة،المعجم الفلسفي ،مرجع سابق،ص230.

[25] كمال بوغديري،الهوية الثقافية الجزائرية في ظل الازدواجية اللغوية مقاربة سوسيوأنثروبولوجية، من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية ،مرجع سابق،ص74.

[26] المرجع نفسه،ص75.

[27] زهية دباب،استراتيجيات الأسرة للمحافظة على الهوية لدى الأبناء في ظل مقتضيات العولمة،من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية ،مرجع سابق،ص145،144.

[28] ينظر:كمال بوغديري،الهوية الثقافية الجزائرية في ظل الازدواجية اللغوية مقاربة سوسيوأنثروبولوجية،من كتاب:دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية ،مرجع سابق،ص76.

[29] ينظر:محمد مسلم،الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا،مرجع سابق،ص114.

[30] محمد رياض وتار،توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، دمشق، سوريا، دط، 2002م،ص12.

[31] أحمد أبو زيد،محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية،دار النهضة العربية، بيروت،لبنان،دط،1978م،ص47.

[32] الحبيب السائح، رواية أنا وحاييم،مرجع سابق،ص51.

[33] المصدر نفسه،ص51.

[34] المصدر نفسه،ص53.

[35] المصدر نفسه،ص197.

[36] المصدر نفسه،ص39.

[37] المصدر نفسه،ص54.

[38] المصدر نفسه،ص161.

-قائمة المصادروالمراجع:

المصادر:

1-الحبيب السائح، رواية أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018.

المراجع:

الكتب:

1-أحمد أبو زيد،محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية،دار النهضة العربية، بيروت،لبنان،دط،1978م.

2-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، دط، 1982، ج2:(ط-ي).
3-خليل نوري ومسهر العاني، الهوية في زمن العولمة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ط1، 2009 م.
4-الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
5-مجموعة من المؤلفين، دراسات في الهوية الوطنية رؤى وتصورات علمية، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، دط، 2020م.
6-محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، دمشق، سوريا، دط، 2002م.
7-محمد مسلم، الهوية في مواجهة الإندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا، دار قرطبة للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2009م.
8-مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط5 ، 2007م.
9-ابن منظور ،لسان العرب، تح:عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، مجلد:6(م-ى)، دت.

المجلات:

1-أحمد محمد إبراهيم محمد محمد الشوربجي وآخرون، فاعلية برنامج مسرحي لتنمية بعض أبعاد الهوية لتلاميذ المرحلة الإبتدائية، مجلة بحوث التربية النوعية، جامعة المنصورة، العراق، عدد 63، 2021م.